ابن رصيف

ما تحمله الناقة

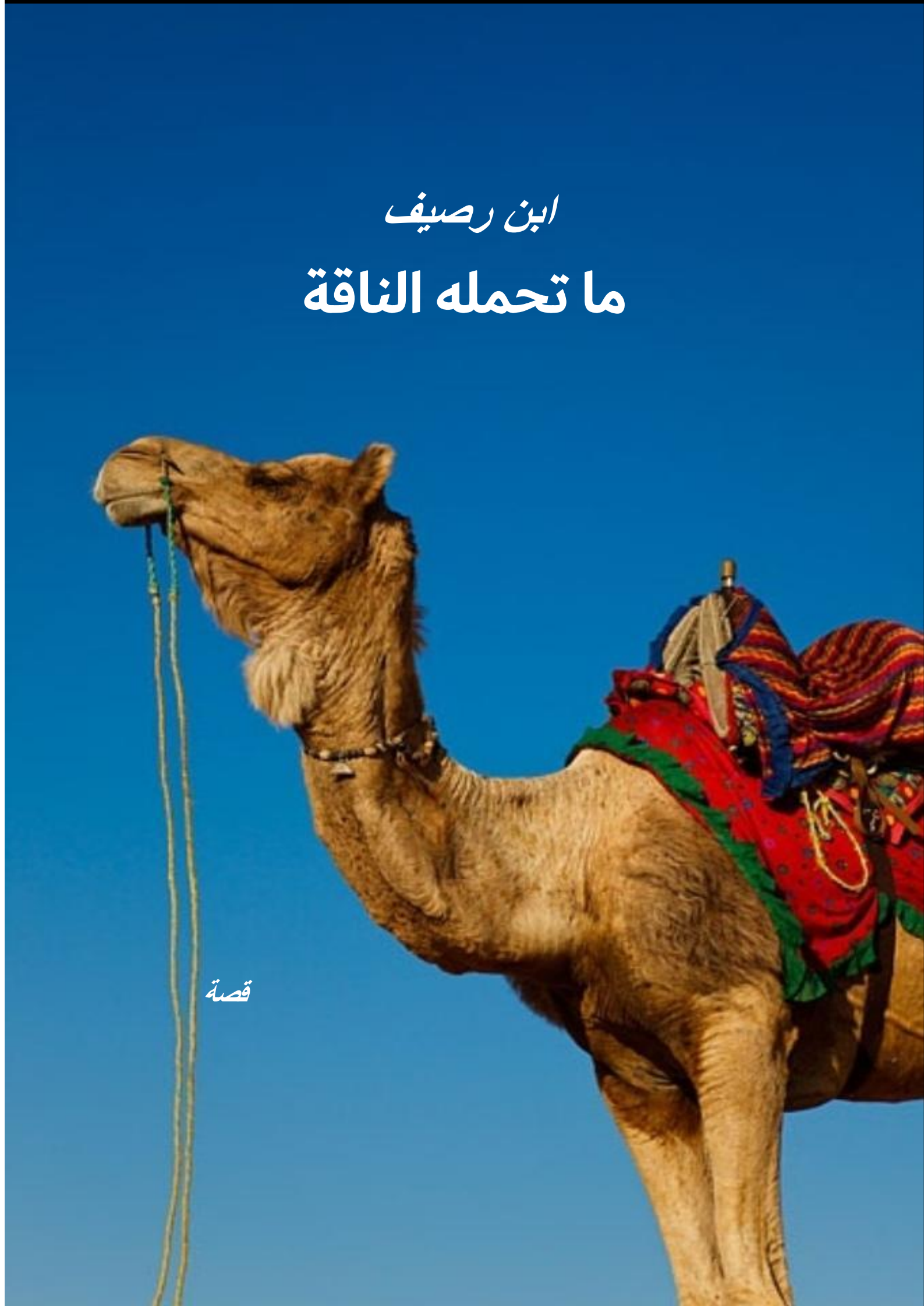

قصة

هذه ذكرياتنا أنا وجدي وأخي حاتم، إن ما ذكرته عني وعن أخي ما هو إلا ارتباطًا به، وما هو إلا محاولة لآتي بذكرياته الجميلة.

١

لا زلت أذكر ذلك اليوم حين أيقظتني أمي وهي تصرخ قائلة : قم يا شعبة! قم!
هرعت من الفراش لأخرج وأرى ما الذي أفزع أمي، فإذ أنا خلف عرب القرية وهم مجتمعون نساؤها ورجالها حول رجلٍ مطروحٍ أرضًا. حين وصلت إليهم، شهقت شهقة كادت تخرج روحي من دهاليزها. لقد كان أبي! حاولت أن أحسر رأسي وأتسلل من بين الأعاريب لأصل إليه، إلا أن أمي كانت تمسكني من ثوبي محاولة أن لا تقربني منهم.
سمعت أحدهم يقول: سقط المسكين عن ظهر الناقة فداست على صلعته.
تشبثت بي أمي حتى جاء جدي زهير وأخذني بعيدًا عن المكان. بقيت أبكي وأعثر خطواته كي يتركني، لكن محاولاتي في الإفلات من يده بات بالفشل أمام قوته وصلابته، وحاول مراراً أن يهدأ من روعي لكني لم أهدأ بالمرة.
حدث هذا وأنا ابن العاشرة في أواخر ليالي الشتاء.
وعند صلاة الظهر من اليوم الثاني، دفن أبي بالقرب من المقبرة التي كانت تمر منها المواشي فتموت دون أن يعلم أحد مخبأها.
أما أنا وجدي زهير وأمي وأخي حاتم، كنا نقطن بعيدًا عن أهالي القرية بمئة وستون قدمًا. أي لسنا بذلك البعد الذي يجعلنا منفصلين عنها لسبب سوف يأتي ذكره !
وهذا إقرار من أبي لكي يجد جدي راحته في تعليم

الصبيان دروس الأدب.
أما أبناء القرية وكبار العشائر يقيمون بالقرب منا في منطقة الدهيثم، وهي قرية صغيرة بالقرب من قصر الحلابات داخل الأردن. أي نحن أبناء البادية الوسطى كما هو معروف حديثًا.

أما معيشتنا تختلف قليلا عمن يقيمون هناك القرية، فجدي كان في زمانه قد صنع لنا بيتا من الشعر، وفيه غرفتين مقسمتين كبيرتين، واحدة لي ولأخي حاتم، وأخرى كانت لأمي وأبي بعد وفاة زوجته. وهو لأنه أكثرنا شجاعة وخبرة في الصحراء، كان ينام في واجهة البيت أمام الحطب المشتعل حيث المكان الذي يطل على قاع خنا الكبير الذي كانت تقام عند أطرافه حلقتي الدين والأدب.

مر يومان على موت أبي؛ ولا زلت غير مصدقٍ كلام كبار القرية، بأن ناقة داست على ملامحه السمراء. إنني أعرف الآبال والمواشي جيداً، لقد ولدت بينها وليس هذا إلا من الأعاجيب والأساطير عندنا !
فلنفترض أن الناقة كانت تسير وسقط أبي عنها، كيف ستدوس على وجهه وهي في الوقت نفسه أثناء دوي أبي على الأرض كانت قد تقدمت خطوة للأمام ؟ _ أي بما يعادل خطوة ونصف بقدم إنسان _.

لذا فإن موت أبي كان مباغتًا من الله. ومما يدعو للشك، أن ملامحه لم تكن تنم عن كسور أو صعود شيء ثقيل

عليها. ففي حال افترضنا أن الناقة رجعت للخلف، فإن وجه أبي سيتفتت إلى شذرات. وهذا ما لم يحصل بالمطلق !

حدثت جدي بهذا الحديث، فضمني إلى حضنه وقال لي دون أن أفهم ما يعي :
(إنك ستنبغ قبل بلوغك.. فما هذا كلام الصغار بقدر ما هو كلام وحنكة الأعاريب الكبار).

مما هو واضحٌ أن علاقتي بجدي زهير متينةٌ أكثر من أخي حاتم، وحاتمُ أحبُّ على قلب جدي مني. لكن لكل منا خصلة محببة عنده. فحاتم ولو أنه يكبرني إلا أنه صاحب خلق وأدب، ولا يتكاسل أو يتململ عند دروس جدي بين الصبيان الذين أتت بهم العشائر ليتعلموا عنده. أما أنا كنت أحضر الدروس وأحفظ معهم المتون والأشعار، وأشاركهم النشيد والغناء، لكني أقرب للصعلكة من أخذ العلوم _ ولو أنني لا أكرهها _.

ما أريد أن ألفت إليه النظر هو أن علاقتي بأبي كانت سطحية، فجل عمري كان برفقة جدي من النهار حتى مغيب الشمس. فلا أراه إلا عند النوم، وفي كثير من الأحيان يدخل لعزلته الكبيرة. فمع تقدم التكنولوجيا الحديثة وتبدل الأشياء بأشياء أبخس وأزهد ثمنًا، انحدرت تجارة أبي في بيع الجاعد ودبغه، فأصابته لعنة الحياة حين ظن أن كل حياته وماله وأولاده مرتبط في التجارة. ربما نسي أبي أن الله لا يقسم الأرزاق

حسب تقدم الزمن وتغير الأحوال، إنما بحسب ما وهب للإنسان أن يعطيه، فإن مرت أعوام فيها حرب وموت، ومرت أعوام فيها فرح وطيب عيش، يبقى ما كتب لنا مكتوب، وما قسم لنا محسوب .

كنت أحزن لمصيبته التي لا أراها مصيبة وأتساءل ؛ ألهذه الدرجة كان أبي مؤمنًا ومحبًا للدنيا الدنية التي ما هي بدار بقاء ولا بدار لقاء ؟ فلو أنه قنع برغيف عيش، وكوب لبن، وابتسامة أولاد، ولقاء رب، لكان من أروع الآباء في قريتنا. لكنه للأسف مات وماتت مصيبته معه !

لم نرث عن أبينا شيئًا عدا المال، والمال الذي كان يدَّخره، سمعت أن جدي أخذه ليزيد عليه ويشيد فيه مسجدًا باسم أبي لتصلى به العامة، ويتعلم بداخله صبيان القرية. ومع أن المسجد الذي كان يحلم به جدي لم يرسم له موضعًا في الأرض بعد، ولم تبنى بداخله كفة طين أو تصله ركوة ماء، إلا أن العشيرة برمتها تهافتت وتناقشت على التعليم بداخله؛ فحزب منها كان يقول (تعليم الصغار بداخل المسجد سوف يتلف السجاد ويوسخ المكان) وحزب آخر وقف وقفة قوية مع جدي حين خطب بهم قائلا ((أيها العرب الكرام؛ لن أطيل عليكم، إن أول ما أمرنا به الله، عز وجل، (اقرأ). وأول ما هاجر المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة شيد مسجدًا، ولا يخفى عليكم بأنه شيَّد المسجد النبوي ليشجع المهاجرين والأنصار على التعلم

والنشاط والعمل. ونحن كما تعلمون نبني على ما وسعت أيدينا، فليس باستطاعتي أن أبني مكاناً ينقسم إلى مصلى وحلقة يدار ويؤخذ بها العلم. لذا سأجهد نفسي وأعمل على بناء مسجد جميل يمثل عروبتنا القديمة ليكون مكانًا جامعًا للعبادة والدراسة يستفيد منه الكبير قبل الصغير، ويعتني به الصغير قبل الكبير. فشاوروا أنفسكم فيما نويته وأنا _ بإذن الله _ أبا له)).

ومن حنكة جدي أني حين سألته (ولم لا تبني جدارًا يقسم المدرسة عن المسجد) أجاب : لكي يظل المكان نظيفًا، فقبل الحلقة وبعدها يقوم الصبيان في تنظيف المكان كله. فإن قسمته فإنهم سيتغاضون عن نظافة المسجد ويبقى بيت الله مهملاً، أما إن كان المكان جامعًا لسجود البدن والعقل فإنه سيكون نظيفًا مثل زهرة في صحراء؛ كل عابرٍ منها يتمنى قطفها.

وجدي زهير الذي أحدثكم عنه، له قصة طويلة لو حدثتكم عنها لأخذت مئات الصفحات. لكني امليها عليكم باختصار يوافي حقه، فإن كان لي أبٌ روى لي قصته، فجدي ليس له أب ليروي حكايته؛ إنه بالمعنى الأصح _ ولا يروق لي أن أقول لكم هذا _ إنه كان لقيطًا، فعثر عليه ذات يوم شيخًا من شيوخ الدعوة الذين يترحلون في مصارع البلدان. فأخذه وعني به كما لو أنه ولدٌ من أولاده، فعلمه وثقفه وبنى قوته وأشدَّد عزيمته إلى أن بلغ العشرين.

ولأبي رأي آخر يشبهه رواه لي في ليلة سوداء حالكة كلون الأدلم عن جدي قائلاً : إن الشيخ الذي عثر علي كان يسمى تقي الدين وهو من العاصمة عمان، كان في طريقه إلى العراق ليأخذ العلم من إحدى جامعات البصرة، وبينما هو سائر إلى علم ينفعه، سمع صوت رضيع وضيع، فكان هذا الرضيع هو أنا، فأخذني ونسب لي اسم زهير. نسبة إلى شاعر كان يحبه حبًّا جما، وهو صاحب الأبيات الشهيرة " زهير بن أبى سلمى " :

أَلاَ أَبْلِـغِ الأَحْلاَفَ عَنِّى رِسَالَـةً
وَذُبْيَـانَ هَلْ أَقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَـمِ

فَـلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُـمْ
لِيَخْفَـى وَمَهْمَـا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَـمِ

يُؤَخَّـرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَـرْ
لِيَـوْمِ الحِسَـابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَـمِ .

٢

جدي زهير كان أسمر البشرة، عريض الجبهة، ضخم الجثة، عريضُ المنكبين، جاحظ العينين، ذو ابتسامة لطيفة متربعة في وجنتيه. لا يأنف عن إنزال عمامته السوداء عن رأسه. علمه الذي وجده العلم، والسباحة، والرماية، وزوجه من ابنة أخيه زينب وهو في الخامسة والعشرين من عمره. فسار على درب الصالحين والتابعين بعد أن دخل عليها فترك بيت الذي أواه وعلمه. ولم يترك العلم حين وجد صلاحه في نفسه ونفسها. بل ظل يتعلم إلى أن رزقه الله أبي فجاء به إلى صحراء المفرق. وكان هذا الوحيد عنده في الحياة والقلب، ولم يرزق بغيره. فحين بلغ أبي الفطام، ووافت زينب المنية بعدها بعام، راح جدي يدرس العلم ويذاكره إلى اليوم.

وإلى اليوم لا أزال أرى آثار أحزان على وجهه خلدتها الأيام، لكنه ذو هيبة ووقار، وذو شجاعة وعنفوان، وذو آمل وصبران، صبر يوسف وأبيه.
فإن ما ذاقه جدي زهير لم يذقه أحد في أرجاء القرية، ولا أحسب إلا أنه من القلائل الذين جلدتهم الحياة ولم يقولوا (آاه آاه) لأنهم يعلمون بأنها ما هي بخالدة مخلدة، وما هم بباقين إنما براحلين. فهو عند الرحيل سيجد ألف حجة لما صبر عليه وذاقه من الويلات ليكون من الفائزين الناعمين بالجنة.
سألته يومًا عن سر هذه المنطقة التي نقيم بها (قاع خنّا

) فروى لي قصتها قائلاً : إن هذه الصحراء يا صغيري حين حضرتها كانت تقول العرب بأنها نسبة إلى امرأة كانت تدعى الخنباء، لأنها كانت مصابة بالخنب، فكانت تخنب حين تتكلم. فعاشت الخنباء وماتت في نفس الصحراء حتى عرفت بصحراء قاع خنّا _ مع تشديد النون _. وإذ ما نظرنا إلى صحراء واد رم، ووادي عربة، ووادي السرحان، فإننا سنجد هذه الصحراء مختلفة برمالها وأجواءها، فهي ذات تربة بيضاء مختلطة بالرمادي المشؤم. فلا ينبت في طياتها نبت، ولا ينفع فيها الزرع والحصد. إنها جافة ككف اليد. تدوس عليها دون أن ينفلت من تحت قدميك الغبار والتراب. وعند أيام الشتاء تجد بركا من الماء ملازمة سطحها، فيظن القادم إليها أنها بحر وما هي بالبحر. وتمتد في ناظريه حتى يخيل إليه أنها المكان ألا محدود.

كان جدي يألف حكايات الصحراء القديمة، ولم يأنف يوما عن رفض الكتب التي تحكي حياة العربي وتلخص أشعاره وتشرح خطبه. وله في مأوانا صناديق محشوة بالكتب، وأخرى عند زاوية الخيمة مكدسة فوق بعضها. كان يحميها من الرطوبة بفرو الأغنام الذي كان أبي يصنعه ويدبغه جيداً، فمنه يباع ومنه يبقى.. وهذه الكتب، ولو أن جدي أعاد تكرارها، إلا أنها أغلى ما يملكه بعد ناقته. وحين كان ينتعل خرجها ويأتي لأهل القرية، تسمع أصوات الصبيان وهم يصرخون (قدمت ناقة زهير). لأنها كانت ناقة عجناء مميزة، والكل ينبهر من جمالها. فهي بشكل أو بآخر لم تكن

عند جدي إلا ناقة تمثل المرأة العربية قديما، فكان الغر والارعن والطائش منهم يميلون إلى المرأة الكهكاهة المتزينة بالخلاخل والأساور.
وجدي ولو أنه صالحًا ولم يدخل على امرأة غير زوجته التي توفيت في أيام النفاس، إلا إنك تشعر من خلال أحاديثه أنه كان ذواقًا للنساء. لكنه لم يكن كذلك.
وأخبرني السرُّ في معرفته أسرار النساء. فكان يقول : إن من يمتح من قصص العرب ويعيش بها أثناء قرأته للتراث، ويحاول معرفة كينونة الحياة العربية، ويحترم هذه التواريخ التي خطت، ويحزن للأعوام التي انقض أجلها، ويأنس عند سماع أشعارها ونثرها، ويلم إلمام علماء الفقه بالفقه، ويخبر النجم كيف هوى، والإبل كيف صنعت، والسماوات كيف انطبقت، والأرض كيف انبسطت، والجن كيف جن، وآدم كيف انغوى..
إن من يخبر هذه التفاصيل التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بإنسان اليوم، يعلم كل صغيرة وكبيرة كأنه عاشها بالتفاصيل.

وحين سألته : أويعلم الإنسان كل هذا في حياته ؟!
أجاب :
_ إن من علم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة وقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.
لهو قادر على أن يعلم كل طالب علم علمه .

٣

بعد وفاة أبينا حرص جدي على أن نبقى إلى جانبه أنا وحاتم. وأن لا نفارق مجلسه، فإن كان في الحلقة، نظل أنا وأخي جالسين في آخر الصف حتى يخرج الصبيان كلهم. فيلملم حاتم كراريس جدي، وأخذ أنا نعله واضعه أمامه حتى نسير إلى البيت. وفي الطريق كما هو معتاد، يبدأ جدنا الذي لا يتعب بطرح الأسئلة علينا:

_ من هو إبليس يا حاتم ؟

فيقول أخي الذي دوماً كان يرى نفسه أعلم مني، أو كان يريد ذلك : إبليس كان ملك من أشراف الملائكة وأكرمهم، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

_ أحسنت. وأنت يا شعبة؛ هل ترى كلام أخيك ضربا من الصواب ؟

_ نعم يا جدي .

_ إذا قل لي صحة ما قاله أخيك الذي وقع في خطأ فادح !

_ صحة القول حول إبليس هو _ كما حدثتنا _ أن الرواية أخذت عن ابن عباس، عن ابن جريح، عن حجاج، عن الحسن بن داود، عن القاسم بن الحسن، عن كتاب تاريخ الطبري.

قهقه جدي قائلاً : أحسنت ولكن عليك أن لا تقول عن كتاب. قل : جاء في تاريخ الطبري كذا وكذا، مع ذكر الإسناد. فإن من احترام العلم أن ننسبه إلى صاحبه. _ ثم أضاف _: وأنت يا حاتم قولك صحيحٌ وما سقطت

إلا في عدم ذكرك الإسناد. فالناس يا صغيري ليس بطبائع واحدة، إنما بمختلفة، فمنهم من يسمع ولا يبالي، ومنهم من يشاطرك القول ولا يتتبع اثره، ومنهم من لا يتتبع أثره ولكنه يريد منك الإسناد كنوع من التبجح، ومنهم من هو عالمٌ لا ينبغي أن تروي له رواية بلا إسناد.

سأل حاتم : ولماذا العلماء ينبغي أن تخصهم بالإسناد يا جدي؟

_ لأنه من باب الأدب والحكمة أن تتحدث مع الملوك بكلام يرضي الملوك، ومع السوقة كلام السوقة، ومع الأدباء كلام الأدباء، وهكذا ..

عند وصولنا البيت، كنت آخذ الجرار واذهب صوب قنوات المياه لأبحث عن قناة مليئة. أحيانا كنت أقطع أشواطا لأجد الماء، وأحيانا أخرى تكون كلها فارغة بسبب عطل في أبوابها التي ينفذ منها الماء إلى القرية. وهذه مشكلة منذ أعوام ونحن نعاني منها، ولا أظنها سوف تصلح طالما لا نزال نعتمد على مياه الأمطار التي تخزن في الآبار الارتوازية، وتستخدم منها طيلة السنة.

كان جدي حريصًا على أن لا تنقطع المياه من بيتنا. خاصة المياه التي تشرب منها الآبال والمواشي. لذا توجد عندنا جرتين بشكل الإجاصة، نخزن فيهن المياه. ولا نفتح غطائهن إلا وقت انقطاعنا وحاجتنا اللازمة لها. فنحن لم تكن عندنا مشكلة كبيرة إزاء انقطاعها فجأة. ولنقل أننا اعتدنا على التعاطي مع هذه المشكلة.

لكن الأشواط التي يقطعها المرء في البحث والوصول إلى القنوات تبقى عصية، خاصةً أننا نقطن عند طرف القاع. وهذا يتطلب مني أو من أخي حاتم قطع مسافة قاع خنّا كلها، ثم السير حتى الآبار التي تمد القنوات بالماء جهة المزارع بالقرب من قرية الدهيثم. كان يمكن أن نأخذ من الآبار نفسها لولا وجود أصحاب البلدية المشرفين على هذه القنوات ! وعند تغيبي أكثر من ساعتين، يعلم جدي بأنني سوف أرجع فارغ الأيدي.

أما بنسبة لمصدر المياه، وخاصة في صحراء تكاد أن تكون شبه معدومة في أواخر التسعينيات، فإن مشروع إيصال المياه كان لغرض الزراعة بعد إثنين وعشرين عاماً من استقلال بلدنا قدمته لنا الحكومة البريطانية، أي في أواخر ١٩٦٨ بينما بدأ المشروع نفسه يعمل وتنساب منه الماء في صيف ١٩٧٠.

كان جدي يحثني على تعلم علمي الدين والأدب وكان يقول لي بأن تقي الدين _ الذي وجده _ علمه هذان العلمان بصفتهما أهم علمان للإنسان في هذه الحياة، فالدين ليقوي علاقته مع الله ويسكن جوارحه، والأدب ليستطيع أن يصوغ به فهما جديداً للحياة. وكان متأثراً جدا بابن قتيبة الدينوري والغزالي حجة الإسلام.
أما ابن قتيبة، لسعته في علوم العربية وقصص العرب والمستعربين والملوك والسلاطين، وخاصة لكتابه البديع الجميل (عيون الأخبار). سمعته ذات مرة يقول لأخي حاتم : اياك وان تهجر أنس عيون الأخبار ولذة البيان والتبيين وبهجة محاضرات الأدباء وسعة الامالي، وذكر سبعة كتب لا يحضرني اسمها.
والغزالي لحياته الشخصية. لقد كان جدي مفتونا بسيرة أو حامد وكان دائما يستشهد به ويثني عليه في مجالس الذكر، وكان يقول لنا _ أي لي ولأخي _ خذوا إحياء الغزالي بجدية ولا تضيعوا عقولكم في أحاديثه فتشككون بأمرها، فهو ليس إماما في الحديث. كان يريد أن يشتغل بهذا العلم أكثر مما اهتدى إليه لو لم ينخ به الموت. وانكب جدي تسعين يوما يشرح فيهما أحياء علوم الدين للغزالي. ولهذا الشرح قصة جميلة أذكرها قبل وفاة أبي حدثت، حيث قصد إمام مسجد القرية بيتنا في إحدى النهارات، فاستقبلته عند باب الخيمة. وكان مما علمني اياه ابي هو إكرام الضيف قبل أن يملي علي حاجته. وفي الوقت نفسه كان جدي وأبي يرعيان

المواشي. ففتحت باب خيمتنا واجلسته بداخلها. فسألني عن جدي. فقلت له: سوف يحضر عما قريب. وبينما هو جالس استأذنته، فقمت ونجرت له القهوة، ووضعتها على النار حتى تغلي، وإذ بجدي يلوح لي من بعيد بيده وأبي يسير إلى جانبه حتى وصلا الخيمة. سألني أبي :

_ من مستضيف يا شعبة ؟

فأجابته : شيخنا يا أبي.

_ وأخاك حاتم أين هو ؟

_ ذهب عند صديقه أنور ليلعبا في القرية.

ابتسم أبي كما لو أنه يبدي فخره بي عندما رآني أعد القهوة. فجلسا هو وجدي حول الشيخ بكل تواضع. حين أتيت بالقهوة شربت فنجانا من المزل أمام الشيخ، كنوع من نشر الأمان له. ثم صببت له فنجانا وناولت آخر لجدي وانتهيت عند أبي لأجلس إلى جواره.

سمعت الشيخ يقول لجدي :

_ إنني قصدتك لمنفعة تنفع صبيانا الصغار وآبائهم الكبار، وتنفعك أنت في الدنيا وتؤجر عليها عند الآخرة.

_ قل منفعتك أيها الشيخ ؟ _ قال جدي _

_ وددت لو تشرح لأهل القرية صغارها وكبارها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في أيام يسيرة. فأنت أطول مني باعًا في العلم، وأفضلنا أديبًا في الأدب.

قال جدي بكل عزم : أبشر يا مولانا، فنحن أهلا لحاجتك. ومتى ما صار ظل الشيء مثله ابعث بالجمع أمام خيمتي، وهنا عند طرفك ستقام الحلقة وتشرف عليها أنت.

حين قال جدي : (متى ما صار ظل الشيء مثله) كان يقصد بعد صلاة العصر، ظل الشمس. فلم يكن لنا ساعات لنعرف بها مواعيد الصلاة، لذا كان جل اعتمدنا على السماء وما تبديه. وكلمته (عند طرفك ستقام الحلقة) أي في نفس المكان الذي أنت جالس فيه سوف نقيم الشرح.

فأمر شيخ الجامع كبار القرية بأن تبعث رجالها إلى القاع ليفرشوا السجاد ويقيموا بيوت الشعر لتفرش الألواح ويختاروا أجود الأصوات ليقرأ الآيات التي في الكتاب والأحاديث التي وضعها الغزالي. لكن جدي أبى إلا أن يكون حاتم أخي هو من يقرأ عليه أثناء الشرح.

وكانت مشكلة جدي هي أن نسخة الأحياء التي عنده قديمة وتالفة يفتقد بعض صفحاتها. فذهب شيخ الجامع إلى عمان ليحضر نسخة جديدة من مكتبة كانت تكن بخزانة الجاحظ. ليست بعيدة عن المدرج الروماني. وهي أقدم مكتبة في الأردن، يعتني بها ويجمع كتبها آنذاك شاب في الثلاثين من عمره يدعى هشام المعايطة. جدي يعرفه معرفة واسعة، لأنه كان يشتري من عنده الكتب، فهو رجل موثوق في بيعها. ومكتبته تلك، عبارة عن مستودعا من الكتب والمجلدات القديمة، وفيها كتبا للعجم يرجح جدي بأنها منذ الانتداب البريطاني في الأردن.

معرفة جدي بحرفة الأدب جعلت من حوله مشحوذًا له ومفتونًا به. كنت أرى كبار العشائر ورجالها لا يتململون في مجلسه، ويصغون أيُّما إصغاءٍ للقصص التي كان يسردها، وكان أول المدافعين عن حياة

الصحراء والإنسان البدوي، لأنه كان يسمع شذرات من رجال القرية تنم على أن البدوي كائن جاهل والمدني كائن متحضر. وفي الحقيقة : جدي لم يكن يعترف بمصطلح (البدوي)، كان متمسكًا بموقفه إزاء العرب. فهو يقول : (لا يوجد بيننا من هو أعجمي، والأعجمي منا أعجمي النسل وعربي الفطرة، ولد وسيموت عربيًا سواء احتفى بعروبيته أم لم يحتفي). فمن ركنوا في المدن والقرى، هم كلهم عند جدي من أهل العرب. وأما بنسبة لعيشتهم الرغدة فهي لا تختلف عن رغادة العيش التي نعيشها في الصحراء، لأن كل من المدني والصحراوي شاغلا نفسه فيما تلهيه. أما ما كان يغيض جدي وينغصه هو أن العربي أصبح ينسى عروبته ويؤمن بمواقف وعادات العجم. لهذا لم يختر جدي القرية لأن عمارها سوف يفقده بيوت الشعر وإشعال النيران ولذة الكتب. ففي القرية كقرية الدهيثم التي بالقرب منا، هناك شاشات تلفاز بدلا من الكتب، وجدران تسد هواء الصحراء النقي، واسقف تمنع الشاهد من رؤية النجوم. فكل هذه الأشياء الحديثة باتت لجدي جندي قدم ليغتصب جمال الإنسان العربي.
وبرغم من أن القرية فيها غرف يدرس بها الصبيان كل العلوم، إلا أن ثقة الآباء بجدي كانت أقوى من معلمين هذه الغرف، فكانوا يبعثون أولادهم إلى أخذ علمي الدين والأدب. وهنا جدي لم يفتح فجوة في حياته ليدخل الجندي المغتصب. بل جلس يعلم ويؤدب كما كان التعليم والتأديب قديما. الجميع متربعون على الأرض أمامه، وإلى جانبه أخي حاتم يقرأ عليه من الكتاب وهو

يشرح لهم.
ولم يكن في الحلقة أصوات تنم عن الهرج والهزل، لأن جدي لم يكن ليسمح بهذا. وكان صارمًا جدا، يعنف المستهتر بكلام يجرحه أمام الصبيان. ولو أنه كان من المفترض أن يتهاون معهم قليلا، إلا أن هذا الذي كان يحصل ليحافظ جدي على سمعته الطيبة ومجلسه العظيم. لدرجة أنني كنت أسمع آباء الصبيان يقولون لمن يلعب ويصرخ: الآن سوف ننادي لكم الشيخ زهير. فيصمتون بسرعة وتلفتون من حولهم.
وكان أنور صديق اخي حاتم يقول؛ إن آباؤنا يغبطون المرتبة التي وصل إليها جدكم في العلم والوقار الذي يتحلى به.
والسر الكبير هو أن جدنا لم يكن يسمح لنا بالخروج للعب، كان يشغلنا دائما إذ انتهينا من رعي الأغنام وحلب الإبل، لأن والدنا رحمه الله كان مشغولا في تجارته، وأمنا كانت ملازمة للبيت تدعي وتصلي وتطهو وتخبز لوحدها. وأحيان قليلة تأمر واحدًا منا، أنا أو أخي حاتم، بإحضار ناقة جدنا لتسير في الصحراء المقفرة. كنا نتبعها على الأدهم لكي لا يصيبها مكروه أو يتعرض لها وأحدٌ من الصعاليك.
وفي كثير من الأحيان حين ننتهي من الرعي نذهب لجدنا، لأن خبرته في الحلب تضاهي خبرتنا ونحن صبيان. فكان حين يحلب يترزق بالبن الحازرا على أم أنور وجاراتها الغانيات العنس.
بعد يومين كان شيخ القرية قد جلب مجلدات الاحياء ليعيد جدي إحياء ذكر الغزالي ويشرح شرح الكتاب

الأهم ويبين مقصده الاتم. وكما كانت عرب القرية تعد لليالي الأعياد، عدت لنهارات الشرح. فالذين سيحضرون الدرس كانوا يستعدون ويأتون قبل صلاة العصر. فيقيم فتى أذكر أنه كان يكنى بابن الطباخ _ لأن والده كان محترف في طهي لحم الآبال _ آذان العصر.. ويصلي جدي بالمأمومين كلهم. ثم يفتتح فاتحة الشرح بذكره الصلاة على النبي، ويبدأ بترجمة يسيرة عن سيرة إمامنا الجليل أبو حامد الغزالي.
والجدير بالذكر أنه كان في كل يوم من التسعين يوما لا يدخل في الشرح إلا وقد أعاد على مسامع من في الحلقة ترجمة يسيرة للغزالي. وهذا التكرار ولو أن جدي يراه مذموما عن العلماء، إلا أنه كان يقول لي كسر من أسراره : عليك أن ترسخ شيء في ذهنهم يا ولدي فإن لم يحفظوا الكتاب فها هم قد حفظوا سيرة إماما من أمة المسلمين الكبار. وقليل نافع خير من كثير منقطع.
وفي الآن نفسه الذي كان جدي يشرحه فيه الكتاب، كان في أيامه تلك، يصلي ويدعوا الله على أن يثبت لسانه الاريب بالحق، وعلى أن يحرسه من الزلات التي يسقط بها الإنسان بين تارة وأخرى.
فعكف جدي في التسعين يومًا داخل خيمته، يصلي ويدعوا ويراجع ما سوف يستنطقه أمام الطلبة. وأخي حاتم كان إلى جانبه يفعل ما يفعله. وكأنه من دون مبالغة، سوف يرث التدريس وإقامة الحلقات عن جدي.
وفي تلك الأيام شعرت بالغيرة، إذ كيف لي أن أصحو معهم، لنصلي الفجر معا، ويعتكفوا هم في البيت بينما

أنا أذهب لأعد القهوة وأساعد أمي في صناعة الخبز وتحميصه. ثم بعد توديعها وبركاتها التي تنضب أذهب لوحدي مطأطأ الرأس لرعي الأغنام وجلب الماء من القنوات حتى موعد الحلقة !

٥

وأمي هذه التي وهبت نفسها لله مع خوفها الشديد علينا، كانت تحرص على أن تعمل في البيت ولا تخرج إلا وقت ما تشعر بأنها اختنقت من الجلوس بالداخل. فإما تذهب لزيارة النساء في القرية وإما تركب الناقة وتتجول في الصحراء لوحدها. ولطالما ظنت المسكينة أنها لوحدها. لكنني وأخي كنا بالقرب منها دوماً لسبب كان جدي وحده يعلم خفاياه فيبعثنا نحميها !

فلقد كانت أمي سمراء حبشية، ذات عينين واسعتين، وأنف رقيق افطس، وشفتان غليظتان مستديرتان تتراقص أسفلهن عند الحنك الجميل، نقاط وشم كانت النساء تتزين به. وكانت معروفة عند الغانيات وبين نساء القرية، يشهدن إليها ببراعة الحسن والمظهر. وكانت تلقب بالكنانية، نسبة إلى عزة الكنانية التي هام بحبها كثير وقال فيها :

ولا تيأسا أنْ يَمْحُوَ الله عنكُما
ذنوباً إذا صَلَّيْتما حَيْثُ صَلّتِ

قالت لي ذات يوم عندما سألتها عن أبي وكيف تزوجها، قالت : عاهد الله قبل يتزوجني بأن لا يغازلني ولو بسكون حرف. لأن من عاداتنا أن لا تتزوج الفتاة ممن يغازلها..

وعند الظهر بينما يكونون رجال القرية في أعمالهم، تذهب أمي برفقة نساء إلى القنوات، حيث الجهة المليئة بالمزارع لتشتري منهم أجود والذ أنواع الفواكه. ونحن

الرجال نمر من جانب المزارع ونأخذ قطفي عنب، أو بضعة حبات من المشمش والخوخ، لناكلهن أثناء الرعي. ومن عاداتنا البسيطة التي لا يألفها أهل القرية إلا كبارها العارفين بحياة البدوي البسيط، كانت حماية أنفسنا. فلا نخرج إلا ونحن منتعلين الأسلحة التي يرجح أهل المدنية أنها أسلحة قديمة. ولتكن قديمة كما هي بنظرهم لكنها أشد فتكًا وأطول عمرًا بدلًا من أسلحتهم الآلية التي صنعوها العجم ليقتلوا الآخرين عن بعد مثل الجبناء. فأسلحتنا مثل السهام والسكاكين الطارحة والرماح الهاربة والمنجلي والهوارة وغيرها.. كانت أغلبها تصنع في البيوت، خاصةً الصغير منها، وصغير هذه الأسلحة يوضع تحت اثوابنا أو في خدر الناقة، أو نظهرها إذا وضعناها عند حزام الثوب أسفل السرى. ومن المميزات أن جدي علمني وأخي كيف نهيل الأشجار بالرماح، وكيف نصد الضربات الفاتكة، والمنجلي السريعة، والهوارة الاكالة، وأهم ما كان يصب اهتمامه به، هو ضربنا وتفادينا للسيف، فالسيف عند جدي كما هو عند أبو تمام ؛

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ
في حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

ومع أن سيف جدي كان حسامًا إلا إننا لم نتعلم بغيره، فكان يقول ؛ من علم على الضلع لم يبلغ ضربة

القرضاب. والقرضاب عندنا هو السيف الذي يقطع من شدة حدته العظام، والضلع رغم اسمه إلا إنه السيف الأعوج الذي لا تشتفي فيه من عدوك وقد لا يأكل من جسمه مأكل.

ومع تقدم العصر جاءت أسلحة كثيرة لا تحصى، وفي القرية الكثير منها، وهي إن كانت نافعة في شيء، فهي أهم ما تنفع به، أنها تصيب الفار منك ما لم تكن أنت بركضك أعدى من الشنفرى لتأخذ من شريان عنقه.
وهي الآن تستخدم في الحروب، لكن عند الشدة ونفاذ الذخيرة، فأنت ستحتاج إلى شجاعة بدوي لتنهش من لحمه، أو أن تفر كما تفر الذباب.
أخي حاتم تعلم الرماح والسيوف وخاض معي جملة من المعارك أمام أبي، فكان تارة يفوز وتارة يخسر، وكان أبي يتعجب حين تتأخر المبارزة بالسيف إلى نصف ساعة متواصلة دون أن ينطرح أحدنا أرضًا. وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على تعب جدي في التعليم.
وبرغم من معرفة أخي بالسيف وحدته إلا أنه لا يمارسه بين حين وآخر، لأنه كما قلت لكم، يظل إلى جانب جدي ليأخذ عنه العلم. أما أنا فأذهب برفقة أنور وبعض الرعاة ونلعب أحيانا بالسيوف، ونختار للعب ما هو تالفٌ الحد، مكسور الطرف. فنعدو في الصحراء بعد اللعب، نقطع أميالا لنصل إلى الأزرق، وفي حال توجهنا جهة القرية وقطعناها، فإننا نصل ونترك خلفنا القصر. وهو قصر الحلابات الذي شيد في عهد كاراكلا سيبتيموس عام ٢١٣م ليفارق الحياة بعدها بأربع

سنوات بسبب طعنة تلقاه من جنوده الذين طمعوا في الاستيلاء على غنائمه. فاستلم من بعده قائد الحرس الامبراطوري ماكرينوس سنة ٢١٧ م.
أما القصر _ كما قال لي جدي _ استخدم لغرضين؛ ففي فترة البيزنطيين أستخدم كحصن دفاعي. وأعتقد أنه كان حصن متين لا ينشرخ بسبب شرفته وموقعه الذي يجعلك تصيب القادم من بعيد بعينيك. ثم استخدمته الأنباط ككتيبة عسكرية لتحرس القوافل التجارية التي كانت تمر من جانبه. فجاءت تسميته وفقاً للأنباط، لأن المنطقة شهدت آنذاك ازدحاما في المواشي والآبال.

٦

في أواخر التسعين يوماً، بينما جدي يشرح الأحياء لعرب القرية، عدل عن الشرح قليلاً ليجب عن أسئلة الصبيان الافذاذ. وهذا عقل البدوي، يطرح الأسئلة كثيراً، لأنه يظن أن صفاء الصحراء والعيش بها قد وهبه كل شيء، بينما هو لم يهبه عدا ما هو خارج باطنه لصورة الحياة الخارجية، ومعرفة التربة الصالح من الشوكة النافعة. فأجاب جدي عن أسئلتهم وحاول أن يبسط ما هو مبسط لألى يخرج أحدهم فقيرا بالإحياء. وأذكر النقاش الحاد الذي دار بين جدي وكبار القرية حول متى كتب أبو حامد كتابه. البعض منهم كان يرجح إلى أنه كتبه في آخر حياته، بينما جدي ظل متمسكاً برأيه على أن أبو حامد كتبه في منتصف عمره، بالتحديد أثناء العشر سنوات التي قضاهن أبو حامد في عبادته واعتكافه لوحده. وهذا الاعتكاف جعل جدي يسرد لهم ما ورد عن أبو حامد حين قدم العراق، فروى لهم قصة استقباله ومعرفته والمقام الذي وضع فيه. وطاف على ما ذكر حول أخيه أحمد الذي جاء لينصحه بأن يبعد عن الترف والمال والسلطان، وماذا جرى معه في مرضه الذي سد ثغره واعقد لسانه. إلى أن وصل جدي في القصة عند التقاء الجبابرة فقال _ ولا زلت أذكر الحلقة _ :

قال القاضي أبا بكر بن العربي قال رأيت الإمام الغزالي في البرية وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس درسه

نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم قال فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له يا إمام أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا قال :

لما طلع بدر السعادة في فلك الإدارة
وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل
وعدت إلى تصحيح أول منزل

ونادت بي الأشواق مهلا فهذه
منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا دقيقا فلما لم أجد
لغزلي نساجا كسرت مغزلي

وأضاف جدي أن أبو حامد يقصد في هذه الأبيات، أنه ترك بناته لأجل أن يصلح الطريق كما أصلحه من بعده جلال الدين الرومي عند التقاءه بشمس الدين التبريزي. ويبدو أن جدي كان ملما بالصوفية، علمائها وشعراءها الكبار، لأنه سبق وحدث حاتم عن الإمام الجويني، وحاتم أكثر مني علما وأدبًا. وأنا _ من أنا _ سوى عرقٌ ذابلٌ في شوكة اهلكتها الشمس ! وما العلم الذي عندي أمام جدي.. وإن فضلت لأجله أحد.. فمن ذا أفضل والله الذي يقسم علومه على العباد، هو خير مقسم، وأفضل من نفضل. فإن من بعد الله جدي، ومن بعد جدي أخي، ومن بعد أخي سهري. فإن في قراءة

العلم آيات من السكينة والجمال، لن يذق لذتها إلا من هو غائب فيها، ومن هو الغائب فيها إلا المستغني عن الدنيا وما فيها، ومن المستغني إلا الذي عاهد الله على أن لا يعلم من علمه إلا لأجله !

فنسأل الله على أن لا يشرق لساننا ويغرب لأجل أن يقولوا يعلم فلان، بل لأجل أن يقولوا كان فلان. فجدي كان يكثر علينا بأن لا نلغو بما علمنا إياه وإلا ضاع من أعماقنا، وكان يوصينا بالتمسك به، وتكراره في الغلس الجميل، فما لذة الشعر إن لم ينشد في صحراء كاشفة ذراعيها ؟ وما لذة الحفظ إن لم يكرره المرء ويتفكر به ؟ وما لذة العلم إن لم يرى المرء ما تعلمه فيشعر أنه لا يزال جاهلا ؟ وما لذة الجهل ومعرفته إلا بأن نحاربها بالعلم لمحوه ؟

هكذا كان جدي، كائناً يريد أن يصلح الجميع ليس أكثر ! وكان من المعارضين والمحاربين للمناظرات والاستعراضات العلمية، وكان يقول؛ إن المرء ليخرج بالكلمة ويندم عليها بعد معرفتها. وذلك لأن الإنسان لا يعلم كل ما ينطق عنه لسانه..

فكم أنت عظيم يا جدي !

جاءت ذات يوم فرقة من المشايخ، وأحسبها والله من الفرق التي تخدع الناس في أنهم يفكون السحر ويأتون بالجن العجب. فقالوا لجدي؛ نريدك أن تفك لنا سحر التمس فتاة وكم تريد من المال نحن نؤمنك فلا تقلق. فرفض جدي صفقتهم، لأنه ليس من المفككين ولا من القارئين. فرجعوا في اليوم الثاني، وظنوا بأن جدي عنده علم ولا يريد إخراجه، فرفضهم مرة أخرى. وعند

مجيئهم في المرة الثالثة، وبينما هم في طريقهم للخيمة، ركضت وأخبرت جدي. فجلس بسيفه يترصد لهم من خلف الخيمة. وما إن وصلوها حتى خرج لهم مشيراً بسيفه إلى الأعلى قائلاً لهم : الله أكبر الله أكبر.
فركضوا الخمسة، والعمامات تتساقط من الهلع عن رؤوسهم، والغبار من خلفهم كما يكون من خلف الضباع. فضحكنا ضحكا حتى سمعت القرية خبرهم وضحكوا عليهم.
ومما هو عجيب أن جدي الذي كان في السبعين من عمره، ذو صحة قوية، ومشيت مستقيمة، وظهرٌ لا ينحني، وشعر طويل أملس، ينقعه كل سبعة أيام مرتين ببول البعير، حتى يحافظ على متانته. كان بالأحرى؛ رجلاً يأبى إلا أن يقول عنه الناس، هذا هو البدوي الأصيل. وبرغم من أن البدو في الصحراء الجنوبية أصبحوا يتحدثون العامية، إلا أن جدي لا يزال ينطق بلسان عربي مبين، بلغة عربية فصحية. ويدقق عاميتهم الركيكة.

٧

في الليل بينما تبدأ الأصوات تخفت عند الهزيع يطلبني جدي لأقرأ عليه قصيدة، وعادةً تكون من القصائد التي اختارها من دواوين العرب، فإن كان مشغولًا على أن يعطيني شيئاً أحفظه يوم الجمعة، أختار أنا قصيدة من الحماسة أو المفضليات أو الاصمعيات أو الهاشميات أو المعلقات أو أي شيء جدير بالذكر. ويا حبذا لو كانت من قصائد الحكمة والوصاية فإنه خير حافظا لها.

كثيراً ما كنت أسمعه عندما أفرش فراشي للنوم، يردد أبيات الالبيري (**تفت فؤادك الأيام فتا**) أو (**لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب**) أو ينشد منظومات لغوية وفقهية مثل متن الشاطبية والاجرومية والجزرية. وكان حافظا خطبة الوداع والبتراء وأديب إسحاق والحجاج. وكان معجبًا بالأخير أُيما إعجاب، معجبا بقوته ونفوذه وبفصاحته وبلاغته.

وكان يذرف الدموع أثناء ترداده لبعض الأشعار، وعندما أسأله ما الدعوة للبكاء ؟ يجيبني ؛ هذا تاريخ يستحق أن نبكي عليه لأنه بدأ يضيع أمام أعيننا. وكنت أتعجب من هذا القول، إذ البارحة كان يحثني أنا وأخي على عدم إفشاء العلم إلا عند السؤال، ولطالما ضربني بعصاته التي يأخذها للحلقة، لأنني اتحدث بمجالس السوقة عن العلم. بينما لم أنوي التفاخر به !

وبعد أن أقرأ عليه أنا أو أخي قصيدة، مهما كان عدد أبياتها، يصرفنا للنوم. ويبدأ هو بالتفتيش داخل كراريسه عن قلم ليواصل ما كان يكتبه. لم نكن نعلم

بالطبع ما يخطه جدنا، ولم نكن لنسأله عن سر ما يكتب، أو عن فحوى الموضوع ! كنا نحترم أسراره الخاصة. وذات يوم في ليلة ماطرة لم تتوقف فيها السماء عن انسكاب الماء، كان جدي يكتب فيها كتابه ويبكي بنشيج تقطع قلبانا عليه، سألني حاتم :

_ شعبة ؟

_ ها

_ علام جدك يبكي في موطنه ؟

_ لا أعلم .. ربما ابتلع ضب !

_ ههه .. قبحك الله !

_ أذهب وسله عن استه أين وصل ؟

_ لعنك الله

_ أتظنني أبدي لك طرفة ؟ علق ذيل الضب في حلقه لهذا يبكي..

_ من يسألك يا شعبة، كأنه يسأل الأصم لم أنت أصم !

_ وهو كذلك !

حاولت أن أجعل أخي يتناسى أمر جدي، لكنه ظن بأنني اعبث معه ! وفجأة بدأ لوحده يضحك ويقول (ههه ضب .. هههه ضب). فسمع جدي ضحكته التي أيقظت أمي من نومها. فصرخ علينا : والله ما أنتم إلا صبيان إن لم تسدو ثغوركم لأسدها بقدمي ! وكان قادراً على فعل هذا، فهو من النوع الذي تشعر حياله أنه جدي التصرف في جل مواقفه.

في إحدى الأيام عندما بلغت الرابعة عشر من عمري، وكان حاتم وقتذاك في ربيع السادسة عشر، أخبرته بخصوص ما بدأ يجري معي، وشاورته ما إذ كان علي

أن أخبر جدي أم لا ! لكنه قال لي : لو علم جدك بأنك تذهب مع الصبيان، ويلعب كل منكم بأير صاحبه، لمج في وجهك. فالأفضل أن تصوم بدلًا من هذا القرف الذي قد يحولك لأقرف مما أنت فيه.

_ هي مجرد نزعة في النفس ليس أكثر !

_ النزعة أو الشهوة أو أيا تكن لن ترضي جدك، وينبغي أن تلهي نفسك فيما يشغلك عن الفراغ لكي لا تفكر بها. ألم تسمع بزهلول ؟

_ ما به زهلول ؟

_ يقولون بأن الصبيان شاهدوه من بعيد وهو يضع حجراً خلف حماره ويدخل عليه..

قاطعته : يدخل على حماره ؟!!

_ نعم . ويبدو أنك ستظل تلعب في ايرك حتى تمل وتصبح حكاية مثل حكاية زهلول.

_ إذا دعك مما سمعته مني ولا تخبر جدي .

_ أنا لا أخبره. لكن لا تدع أفعالك تؤثر بملامحك فتخبره هي !

_ عافانا الله واياك.

وبعد هذه الحادثة أذكر بأنني تمنيت أن أجد من يشرحها لي أكثر، وللأن تمنيت أن أخبر جدي، لكان قد روى لي قصصاً عنها لا تمل. وحين كنت أجلس أمامه لأقرأ عليه شيئًا ما.. كنت أرى أحيانا خيال أيره الغليظ الطويل. وهذا لا ينحصر على جدي وأبي. بل على كل الكبار الذين أخذتهم الأيام ! فكنت أتساءل في سري ؛ ترى ماذا كانوا يأكلون ويشربون ؟ وكيف كانت نسائهم تحتمل سمك هذه الأشياء ؟! ومع مرور الوقت بدأت _

كما بدأ كل وأحد منا يعي التفاصيل أكثر_ . وما فهمتها إلا بعد أن بلغت السابعة عشر. ومما هو ملفت للنظر، أن أجدادنا أصحاب الفحولة الطويلة، كانوا ينجبون أعدادًا كبيرة. ففي القرية كانت عاتكة مثلا، عندها سبعة بنات وخمسة أولاد من زوج وأحد، وابراهيم ابن الأدهم تزوج امرأة يقولون أنها من الحجاز، فانجب منها اثني عشر ولدا.. وجارنا الحويرث وهو من كبار تجار الشاة، تزوج صبى وحمدا، وانجب منهن أربعة وعشرين حيا. لدرجة أنه ينسى أحياناً من زوج منهم ومن غدا يرعى ومن ذهب للقنوات ومن حضر درس جدي ! وهو أعجوبة زمانه، وكان من أصدقاء جدي. وهو وإن كان رجل ذو أدب ونسل طيب إلا أنه كان ينسى الأدب عندما يدخل على نساءه.

وكلما جاء صبي أو بنت لعشيرة ما، كانت العشيرة تذبح شاة له في اليوم السابع ليبارك لها الله في المولود الجديد، واكثرهم كانوا يجتمعون في الديوان _ وهو بيت من الشعر كبير يجلس فيه رجال العشائر _ فيباركون لأب المولود. وهو بدوره يأتي بأطباق (المنسف) وهو وعاء كبير يفرد بداخله الخبز ومن فوقه الأرز الأصفر وترصص قطع اللحمة الكبيرة فوقه_ التي عادة ما تكون بحجم الكف _ فيضاف له اللبن المطبوخ مع الجميد ليكون ثقيلا، ويزين بالبقدونس والصنوبر أو اللوز. فيجتمع الرجال حول أطباق المنسف ليأكلون بأيديهم. ومن المستقبح أن يأكل المرء بمعلقة أمام الكبار في المناسبات، لأن هذا من أفعال النساء. ومن العادة أن يتكرر أب المولود _ أو وأحد

من إخوانه أو وأحدا من العشيرة _ على الرجال، فيصب لهم اللبن.
ذات يوم سألت جدي عن سر ذبح الشاة، إذ أننا نذبح أكثر من اثنتين ويصل أحيانا إلى عشرة وهذا غير جائز. فقال لي : هذه ميزة عند العرب فكانوا يتفاخرون بكرمهم ويتسابقون إليه.. ومن لا يكرم الضيف ويعد له مائدة جلية بالطعام، كانا يهجى. ألم يخبرك والدك رحمه الله عن قول الأخطل ؟
_ لا !
_قال بآل عمار :

ما كنت أحسب أن الدخن فاكهة
حتى مررت بوادي آل عمار

قوم أذا أستنبح الأضياف كلبهم
قالوا لامهم بولي على النار

فضيقت فرجها بخلا ببولتها
ولم تبل لهم ألا بمقدار

ومن جميل ما أذكره في أيام جدي أنه كان يأخذنا إلى سباق الخيول، وهذا السباق يجري في عرصات الصحراء، ويشترط أن يجري في أرض مسطحة، فأحيانا يجري عندنا في القاع وأحيانا أخرى في أي مكان لا حد له إلا من بعيد حيث لا يكون من حدود السباق. فيخرج من كل عشيرة فارسا عداءً يكون أقواها وأسرعها جريًا في الخيل، فيتنافسون بين بعضهم،

وتحتشد العشائر لتشاهد اللعبة، وكل فارس ينتظر أن يسمع مديحًا، كقول عنترة عن نفسه :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَها
قِيْلُ الفَوارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ

فتجد الرجال متلهفون للفوز. وكل عشيرة توصي فارسها وتحثه على أن يأكل الصحراء أكلا، فهو الذي سوف يعلي شأنهم، ويعظم مكانتهم من بين العرب. بالمختصر المفيد؛ يصبح الفارس وقتذاك بمكانة الشاعر الذي دائماً تفتخر به العشيرة وتعزه. فيجهز الفارس فرسه. بل وتجد الفرس الذي خصه للسباق هو الأكثر وسامة وصحة ونشاطا عن باقي الافراس. فأكله كافي وافي، ومشربه عند قدمه صافي. فيعتني به دوماً ليتأكد من سلامته. وقبل موعد السباق ببضعة أيام تجد الفرسان هائمين في القفاري يتجولون ويتفسحون ويركضون. وكل مشترك ومتفرج، راكبا فرسه متنطعا به، وكأنه يشير إلى جبروته الذي سوف يحطم جبروت الآخرين. ويغرس الرمح الخطي في نهاية المضمار، وتوضع عند نسله جائزة قيمة .

وهذه الافراس التي يتسابقون بها، هي عندهم كأولادهم، فأكلها البرسيم والحشيش الأخضر. لكن نظرا لظروفنا في الصحراء فإن العثور على حشيش أخضر يكاد أن يكون فعل مضني. فنكتفي بوضعنا الشوار والشعير والعلف. أما الأخير تأكل منه كل الافراس. والشعير والشوار والبرسيم، نخزنه للتي نريد منها أن تكون ذات حزم وسرعة. تماماً كتأثير الأكل على أجسامنا !

قبل المناسبة بليلة واحدة، يربط الفارس جواده ليجهزه للسباق، فيقلم اضافره، ويزيل الزوائد والأطراف الميتة من الحافر بطريقة تكنيكية كان قد تعلمها منذ نعومة اضفاره. فيبرد حواف الحافر ويزيل الأوساخ العالقة كالحجارة والطين، ويغسله ويمشطه. ثم يتركه ليغفى على أملا أن يظهر شجاعته في الساحة. وعند الفجر، بعد أن يصلي ركعتين يدعو فيهما ربه أن يمنحه الانتصار، يزين فرسه بالرسن الذي كان قد أضاف إليه مجموعة من الخلاخل والاساور الفضية، ويعقد السرج بحزم وقوة، ويختار لون الحبل، فإن كان الفرس أبيض فمن الأجدى أن يكون الحبل أسود، وكذلك العكس، لكي يلمح الحبل بسرعة بديهية إن أفلت من يده، فيختطفه.
ليس للجميع جرأة على خوض مثل هكذا سباق، خاصةً العشائر الصغيرة، فكنا نراها لا تخرج بفارس يحمل اسمها. لكنها تشجع العشيرة التي تنسل منها أو التي تحميها.
أما بالنسبة إلى جدي، فكان يشجع غوير، وهو من أشد العدائين سرعة وأثبتهم رزانة على ظهر الفرس.
وغوير هذا الذي لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، أحد المجتهدين في حلقة جدي، وكان نابغة في الأدب، يرنو إلى الشعر في غياهب الصحراء، فينشد ما تبينه من أشعار الاصمعي، وكان يكنى بالأصمعي لحفظه ديوان الاصمعيات وبعض ما نثر منه، وإن سألته عن شيء يقول لك ؛ قال حاتم عن الاصمعي، أو قال عبد الرحمن عن الاصمعي. فكان جدي قد بلغ بغرامه حدا لا يضاهيه أحد من بعدنا، وكان يعتبره أخا لنا في

التربية. وأنا أعرف لما جدي يتطلع إليه على أنه من افذاذ الطلبة، لأنه دائماً يفخر ويعتز بالذين يحفظون شعر العرب ويقابلون تلك الحياة بهذه، فتعز عليهم حياتهم وباديتهم كما تعز عليهم سير اعرابهم.
كان حاتم في خصام حاد مع غوير، فلا يشجعه أو يتمنى له صلاحا في شيء، لأنه يرى بأن غوير سيحوز أعلى مراتبة في قلب جدي. وهذا أحسبه تهكم من أخي، إذ نحن أحفاد جدنا. والبدوي بطبيعته لا ينسى دمه أو يتخون له، بل يظل متصلا به مهما أبدت له الحياة من الرداءة.
اجتمعت العرب في قاع خنّا، بعضهم على فرسه وآخرين جاءوا على أقدامهم ليجلسوا على ظهر الجبل فتنكشف لهم اللعبة في عرضة الصحراء كلها. فوقتذاك لا يبعدنا عن وصول الفرسان سوى سويعات قليلة، فتجد ذاك يلقي شعرا ذما، وذاك يمدح في عربه، وآخر يهجو فلاناً ويتوعده. حتى تأتي الفرسان، ويبدأ التخوف والانهزام على وجوههم مرحبا بهم.

فتصطف الخيول وتجيش الصدور وتنطوي الألسن وتجحظ العيون وتتخبط الأنفس وتتقافز الخيول بمكانها منتظرة أن يشير الحاكم بانطلاقها. فما إن يرفع يده وينزلها بسرعة. حتى تبدأ الخيول كعادتها بالتلفت هنا وهنا وهي تمشي الهوينا، فيرخي الخيال حبل فرسه رافعا يده للأعلى ليضربها، فتسرع في قاع الصحراء مرسلة من خلفها عكوبا من الغبار لا يضر. وتجد الفرسان قد ردو العمائم على الانوف ليحموا وجوههم

من سخونة الهواء ونفث التراب، وفي كل ثانية يتطلعون من حولهم ليروا من أصبح خلف من، ومن إلى جانب من. حتى يكون الفارس الذي سبقهم قد اصبح في المقدمة بعيدا عنهم، فإن وصل الخيال إلى الرمح، وأخذ جائزته من نسله حتى تكون اللعبة قد انتهت. وهنا ترفع رؤوس وتتنحنح رؤوس، وتفتخر عشيرة وتنكس عشائر. فإذا كان الجو مشحونا باللعبة والتحدي، يتنافسون مرة أخرى. لكن يخرج الفائز حتى يترك لغيره مجالا للفوز، فتعاد اللعبة مرتين أو ثلاثة كحد أقصى.

في العادة يكون غوير إما في المركز الرابع أو الثالث، ومع هذا كان قد بلغ المرتبة الثانية خمسة عشر مرة وبجانبها مرتين في المرتبة الأولى. ومع هذا لا تعتبر عرب القرية إلا قريض بن يقظان، أسرع من ركب الخيل وفاز به.

٨

في أواخر الصيف، قبل عامين، باع جدي مئة وعشرون رأس من الأغنام، ليشتري لي ولأخي حاتم أرضا تبقى لنا فيما بعد. وليشيد المسجد الذي كان يحلم بتشييده باسم أبينا. فلم يذخر لنا سوى القليل من المال وما تبقى من الماعز والخرفان عددٌ لا بأس به يصل إلى ثلاثمئة رأس وأربعة آبال وفرسان. فنزل إلى المدينة ليأتي بعمال يعملون في الأرض. وكان قد قرر أن يحفر بئر تحتها لتنزل مياه الأمطار من سطح المسجد إلى أسفل البئر. وهذا قرار جوهري في منطقة تعاني إلى اليوم من قلة الماء للمزارع والقرى. وفي غضون أسبوع كانت ناقلات الحجارة والتراب داخل الأرض، والحفارة يصدح صوتها من بعيد، وكأنها تبلغ الصحراء أن هنا سيقام شيء ما، يجاورك وتجاورينه. شيء سوف تجيش مشاعرك لأجله وهو يؤذن في اليوم خمسة مرات...

بينما كان المسجد يشيد، وقف جدي عن تدريس الصبيان ما يقرب تسعين يوما، ليتابع معهم أعمال المسجد لكي ينجز في أسرع وقت ممكن. وكان يذهب برفقة شيخ القرية إلى العاصمة ليشتروا أفخم أنواع السجاد الفارسي. كان وقتذاك السجاد العثماني التركي، والسجاد المحلي منتشر في مدن الأردن كلها. لكن، لم تدخل صناعته وجماليته عقل جدي كما دخلت جمالية الرسم الإيراني على السجاد. ولشدة غلاء السجاد

الإيراني، أضطر جدي أن ينزل في أكثر من مدينة للبحث عنه. حتى وجد نوعية متينة وسميكة، مزركشة بالصوف، مصبوغة بالأزرق، مرسومة بالبني عند أطرافها.

ومن جماليتها غبط شيخ القرية جدي، لدرجة أنه وعده بأن يحضر واحدة للمسجد أغنى لونا من السجادة التي احضرها. واشتروا نسخ كثيرة من المصاحف وكتب الأحاديث والسير لتوضع بداخل المسجد، ومما كان مقترحاً من قبل شيخ القرية، أن توضع في أواخر زوايا المسجد، رفوفا جامعة لكتب اللغة والأدب، فستأنس جدي لاقتراح الشيخ الذي لم يدر في رأسه. إذ أن جدي كان معتمدا على الكتب التي يملكها، فهذا أثرى سعادته ولون شجونه. فأشترى لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز آبادي وتاج العروس لابي الفيض الزبيدي والعين للفراهيدي وكتاب سيبويه بشرح وتحقيق عبد السلام هارون، وكان جدي محبا له شديد الثناء عليه. وأذكر من بينها الأغاني للأصفهاني _ ولو أن جدي لم يكن يحفل به لأجل ما قيل فيه من الأكاذيب _ وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الطبري وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الأندلس لمحمد عثمان والمغني اللبيب عن كتب الاعاريب للأنصاري والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ مع حيوانه ورسائله وبخلائه، وأيضا الشعر والشعراء وعيون الأخبار للدينوري، وجملة كثيرة من العناوين التي لا تحصى.

فجاء جدي من المدينة محملا أغراضه على شاحنة فرحا بها، والشيخ برفقته أول ما نزل منها أخبر حاتم بأن يأتي برجال من القرية ليساعدونه على تنزيل البضاعة. وبالفعل كنا خمسة رجال، أنزلنا السجاد الذي سوف يوضع في المسجد، وكان ثقيلا. وحملنا الكتب وقطع من ألواح الخشب السميك، تثبت في الحائط لتحضنها. وكان جدي في غاية السعادة، واشك أنه وصل بسعادته تلك آفاقا لم يصلها من قبل.

ومما حرص عليه في بناء المسجد أن يأخذ الطابع القديم، فتوضع قبتين صغيرتين وسط سقف المسجد ليوزع الصوت في ارجاءه دون الحاجة إلى أجهزة إلكترونية حديثة تتعطل تارة وأخرى، ولتكن النوافذ في الأعلى، تبعد مسافة مترين من سطح الأرض، لكي يدخل الهواء دون الغبار _ نظرا لجغرافية المكان _ وليكن الباب من الحديد الصلب. وكأنه كان يشيد حصن منيع من الأعداء !

وبعد مرور تسعين يوماً كان المسجد الصغير الذي يتسع لحوالي مئة شخص، جاهزاً للصلاة والتدريس. في مقدمته منبر خشبي حفرت عليه آيات الكرسي ، وفي نهايته قرب الباب، الموقع الذي ستقام به الحلقات، وعند جدرانه الخارجية توجد صنابير المياه للوضوء، وأسفلها قناة صغيرة تأخذ الماء إلى الزرع الذي يحيط بالمسجد، وهكذا ينتفع الزرع بوضوء المصليين. فتخيل أن أغلب الصبيان الذين يأتون من اللعب، لم يكونوا على وضوء، فينتفع الزرع من أكثرهم.

٩

في الأشهر الأولى التي عقبت افتتاح المسجد، ظل جدي شامخاً في إعطاء الحلقة بين يوم وآخر، وكان متحمساً للون المكان وبرعاته، وتدريسه في أجواء من المهابة تدور بها رائحة العود والبخور، وكان الجميع متجاوب وملتزم في الصلوات والحلقة. وأصبحت القرية تسمع آذانا جديداً قادماً من قاع خنا، المكان الذي لم تكن ليأتي منه شيئاً عدا الغبار. واليوم أصبح يأتي منه شذى الورود المزروعة عند أطراف المسجد.
عزم جدي بأن يبدأ في شرح أمهات الكتب، حال ينتهي من إكمال الحلقة التي وقف عندها. أذكر حين توقف كان في شرح لأمية العرب، اللامية التي أعطت للعروبة شكلها، وللبدوي مكانته، وللصعلوك حقه، وللعامي معرفة الإنسان العربي من خلال شاعر جاب الصحراء طول بعرض، واذل رقاب بنو سلامان، وقيست قفزاته، فكانت الواحدة منها تعادل عشرين قفزة. وهذا الشاعر الذي خط اللامية هو ثابت بن أوس الازدي، المعروف بالشنفرى وهو من أحب الشعراء على قلبي كما أن زهير بن ابي سلمى أحب الشعراء على قلب جدي.
فهذا هو الأدب يجعلك محبًا لشاعر لم يجوب حياتك ولم يألفها، إلا أنك تحبه لعلاقة تجمعكما معا ، فكتب هذه العلاقة، وكانت أجمل العلاقات العربية. علاقة البدوي بالصحراء، لذته في صحبة المواشي والآبال والافاعي. عشقه للسهر وسماع الطرب من الغانيات والحواشي..

انسه في التهام الكتب.. قيامه في الليل.. رحيله إلى أماكن بعيدة عن البشر.. تهجده وهروبه إن أساء إليه أحد، إلى ظل شجرة أو مغارة باردة على جسده هادئة على لقلبه.

بدأ جدي في إكمال ما توقف عنده وكان البيت ؛

أُديمُ مِطَالَ الجُوعِ حتّى أُميتَهُ
وأضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فأُذْهَلُ

فقال ؛ وهنا يقصد الشاعر بأنه يديم وقت جوعه حتى يموت الجوع من تلقاء نفسه، فلا يبقى جاعا. **واضرب عنه الذكر**، أي أمسك عنه، واصرف نفسي عنه فلا أتذكره. **صفحا**، أي أعراضه. كقولنا (صفحت عنه) أي أعرضت عنه. أما **فأذهل**، أي انساه، نسيه وغفل عنه.
فيأمر من يقرأ عليه قائلاً ؛ تابع يا بني.
فيقول من يقرأ على جدي :

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

فيوجز جدي قائلاً : كانت العرب عزيزة نفس، وهنا يبين الشاعر عزة نفسه في البيت، فيقصد ؛ أنه مستغني عن الناس وعما في أيديهم، لدرجة أنه يريد أن يأخذ من الأرض ما يقوم به صلبه.
وواصل جدي على هذا النهج وعلى مثل هذا المنوال، شرح لأمية العرب كاملة. وتبعها بلامية العجم للحسين

بن علي الطغرائي، لكنه لم يتممها بسبب دخول شهر رمضان. فإذا دخل رمضان، توقف عن التدريس والتنبيش، وتلفت نحو صيامه وقيامه، فيحرص على أن يعتكف في البيت برفقة أمي، ونحن نظل صائمين حتى آذان المغرب. لكننا نذهب إلى ممارسة حياتنا اليومية بعد كل صلاة فجر، فنرعى الأغنام ونروي الآبال ونتفقد الخيل ونحاول أن لا نشغل أنفسنا بما لا طاقة لنا به، كي نحافظ على أجسادنا وسط لهيب الصحراء من العطش، بل بالكاد نعطش بسبب ما متحناه من الزمن الذي جعل وسيلتنا بالعيش عادة لا يستطع أي مرء الإقبال عليها. فإن جاء زائر من المدينة وامرته بأشغالنا لأنهكه التعب. وربما يخرب العمل لكثرة جهله بتفاصيل الحياة البدوية. فطبيعة الكائن البدوي بفحواها، طبيعة قاسية وجبارة، لذا تجد عرب الصحراء يختلفون عن عرب المدن، فهم أكثر شجاعة وقوة، انهم أشبه بالتضاريس، أو أنهم جزء مهما من هذه الصحراء الرغدة.

في أوائل الشهر الفضيل، كان جدي يريد أن يدعو بعض من رجال القرية للفطار، فذبح بكرة صغيرة وخاروفين. لكنه وقع في غلطة كبيرة ربما وقع فيها لأنه بدأ يفقد نفسه مع الكبر. فذبح البكرة أمام الناقة، وصارت الأخيرة ترغو وتحن وتدور حول نفسها، وكادت أن تلحق جدي لو لم يمسكها حاتم من حبلها. ففر جدي من حقدها وتابع الذبح في مكان آخر بالقرب من بيتنا. أخذت النساء اللحمة لتجهزها، وراح ليغفو حتى صلاة العصر.

١٠

ذهبت مع أخي حاتم بعد الذبح إلى المسجد لنقرأ القرآن ونتلو الذكر، وكان جدي كما كنا نحسب، نائما في خيمته. لكننا حين سمعنا صوتا يتأوه عاليا خرجنا. كان بيتنا من بعيد يبدو وكأنه ساقطا من أركانه. ركضنا باتجاهه ونحن نرى من بعيد الناقة واقفة فوقه تتمختر. أما أمي كانت عند نساء القرية تعد معهم اللحم. فكان خطئنا الوحيد هو ترك جدنا لوحده. قال لي حاتم ؛

_ لنركض يا شعبة.. يبدو أن حدث ما وقع لجدنا .

_ نعم.. من المستحيل أن تقع الخيمة لوحدها .

_ سل ما الذي جلب الناقة للخيمة.

_ لا أدري.. ألم تربطها أنت بعد الذبح ؟

_ ربطتها جيداً.

_اذن لنركض أسرع.

ركضنا باتجاه البيت وهو ساقطا لا أحد حوله، بل لا يوجد أي صوت. كنا مشدوهين، وأعتقد أن السؤال الذي كان يتبادر إلى ذهني هو نفس السؤال الذي كان يشغل عقل حاتم؛ أين جدي ؟ _ سأل أخي مجدداً _ أين جدي ؟. فهم حاتم يرفع الأعمدة الخشبية وبدأت أنا في إزاحة الجاعد والصوف، فوجدت جدي حيث تقف الناقة، في الزاوية المليئة بالكتب. كان متكورا سكانا بلا حركة مرميا على الأرض، لا ينبس بشفه، الدم يسيل من اشداقه مشكلا بركة صغيرة حمراء، وفي الجنب الأيمن من رأسه، كانت عظام وجهه مكشوفة. عرفت أن الناقة حقدت على جدي لأنه قتل أبنتها أمامها،

فداست على وجهه وحطمته. وجدي الذي كانت حركته تخفت عند الصيام، لم يستطع أن يقاوم أو يلوذ بالفرار. ذهبت أنا لاتي بأمي من القرية، وأخذ حاتم جثة جدي وهو يبكي إلى مكان نظيف.

لم أكن أعلم ماذا سأقول لأمي، خاصة أنه يوم الإفطار مع زوار جدي. حاولت أن أرجع إلى حاتم لنخفي موت جدنا عن العرب، لكنني عرفت أنهم سوف يسألون عنه، خاصة أنه هو المستضيف. فتابعت سيري اتجاه القرية. لم أكن أبكي من شدة الصدمة، لا زلت غير مصدق لما حدث !

حين وصلت القرية وجدت غوير الفارس والتلميذ الفذ عند جدي في طريقي، فسألته عن امي، قال لي أنها بالداخل، فوقفت عند الباب أنادي عليها حتى خرجت ؛

_ ما الأمر ؟

_ جدي يا أمي جدي

_ على رسلك يا بني .. ما بال جدك ؟

_ الناقة.. الناقة التي قتل ابنتها قتلته.

_ ماذا تقول ؟

وضعت أمي يداها على وجهها، وراحت تلطم قائلة (يا الله .. يا الله). وفجأة راحت تركض باكية ويداها مشرعتان، تصرخ وتنادي (زهير .. زهير .. زهير) بصراخ يدعو للشفقة.

اخبر غوير عرب القرية بما سمع، ولحقنا بعض من الشباب، فحملنا جدي ووضعناه على ضهر فرسه، وقاد حاتم الفرس إلى أن وصلنا شيخ القرية لكي يغسله ويحفظ جثته حتى ظهر اليوم الثاني. ثم عدنا إلى البيت،

رفعنا الأعمدة ونصبنا الحجارة، ورتبنا الفرش، وأخذت بنفسي الناقة الحقودة التي داست على وجه جدي، وابعدتها من البيت.
أما حاتم أخذ أمي لتبقى عند نساء القرية حتى تبرد اللوعة التي تبوأت قلبها. فالحزن الذي نزل بها كان كبيراً. حين انتقل ابي إلى بارئه، كان عند أمي بصيصٌ من الأمل بأن جدنا هو السند. والآن لم يبقى لأمي سند يذكر سوانا ! والحزن الذي أصابني ليلتها، كان كفيلا بأن ينقلني من بعده لولا قناعتي بأن هذه حكمة الخالق. حكمته في المخلوقات ووضع بداية ونهاية لكل شيء هو أعرف منا بسره، واعطاء فرص وارزاق يمنحه في هذه الحياة أن يعيش الحياة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل نعم جدي بالحياة التي خصها له الخالق أم أن الحياة بطبيعتها ليست مجدية ليرحل جدي عنها دون أن تنبونا بعاصفة تشير إلى رحيله ؟!

أخذت أنا وحاتم وبعض من رجال القرية وفي مقدمتنا الشيخ، جثة جدنا. لقد كانت الجثة باردة في حر الصيف، وكان شيخ المسجد يقول ما هذه البرودة إلا رحمة ينزلها الله على خلقه المباركين. وعند وصولنا المقبرة حفرنا له قبرا، وكان ضيقا. انتاب اخي حاتم الحزن المرير على ضيق القبر، فطلب من الشيخ أن نحفر ما يبقي اشبارا جانب الجثة. فصبر على ما طلبنا شفقة على حزننا الذي لن ينكمش، وحال انتهاءنا ادخلناه العالم السفلي، ليلقى ربه بعد ذاك بالطريقة التي أحبه له الخالق.

رجع حاتم مع الشيخ ومن برفقته إلى القرية، وبقيت جالساً لوحدي من ظهيرة اليوم حتى بان الغلس، وفجأة رحت أرى في خيال الصحراء المعتم وأنا أقول؛

يا كوكباً ما كانَ أقصرَ عمرَهُ
وكذا عمرُ كواكبُ الأسحارِ

وفجأة تراءى لي وجه جدي وهو يقول " لقيت أبيك وغدا سنلقاك معنا، فاعمل في دنياك ما تلقاه في اخرتك " واختفى وجهه أو هكذا كنت أتخيل.. لا أدري بالتحديد ما الذي أصابني بعد موته ! فقط كل ما اعيه أنني عدلت عن اللهو واللعب وبت طريح الفراش لا أكلم أحد عشرة أيام. حتى أمي كانت تظن بأنني لاحقاً جدي لا محال ! لدرجة أنها اهتمت بي كما لم تهتم بي حين كانا أبي وجدي موجودين.

عكف حاتم على متابعة التدريس بعد جدي، وكان ينقصه من يقوي عزيمته لكي لا تخفت. فكنت إلى جانبه محاولين معا إرجاع ما أراد جدي الحفاظ عليه. أي أن نظل محافظين على حياة العربي القديم الذي كان يحمل كراريسا في رأسه، ويحفظ شعر الهذليين والمعلقات والدواوين، ويسمي للخيل أكثر من أربعين اسما وللكلب سبعين اسما.

ومع مرور الأيام أدركت بعد رحيل جدي بأنه لم يعد للبدوي غير ناقته ومعزته واغنامه، وبأن هذه الأشياء الحية هي التي أصبحت تمثل الإنسان البدوي. أما شجاعته ربما لا يزال منها القليل، يستخدمها وقت ما يجن، وأما علمه فقد أمسك عنه، وأما حفظه للشعر

وأنساب العرب وصحف الحرب، باتت ذكرى للبدوي، ذكرى كان يستخدمها أجداده !

٢٠٢٠/١٠/١٠

عمان – الأردن